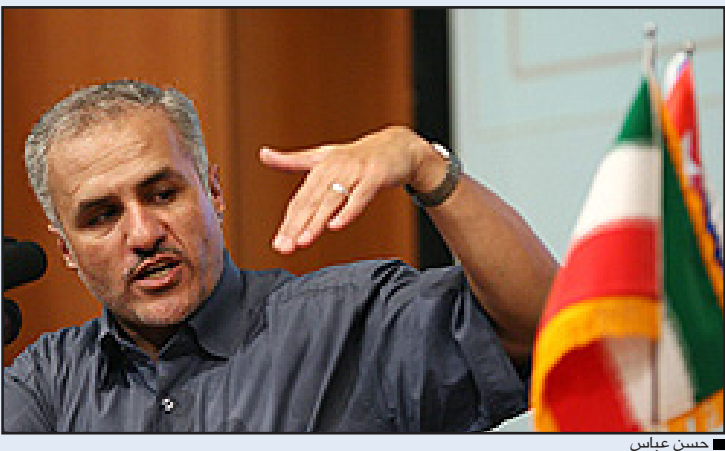


ألوية إيران الانتحارية: إرهاب ناهض

علي أفونه



حسن عباس

والذي اغتيل في 5 كانون الثاني/يناير 1996، وهذه الوحدة تتكون من ثلاث فرق لا يعرف حجمها بالضبط؛ فرقة ريم صالح الرياشي، نسبة إلى أول امرأة تقوم بعملية فدائية لصالح حركة "حماس"؛ وفرقة مصطفى محمود مزاح، المواطن اللبناني البالغ من العمر 21 عاما، الذي لقي حتفه في غرفة من غرف فندق بادنجتون أثناء اطلاعه على كتاب لصنع القنابل، ومن المرجح أنه كان يخطط لاستهداف سلمان رشدي. أما الفرقة الثالثة فأطلق عليها اسم أحمد قصير، وهو شاب يبلغ من العمر خمس عشرة سنة ويعتبر أحد منفذي العمليات الانتحارية لحساب "حزب الله" اللبناني، وكانت عملياته قد دمرت في 11 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1982 بناية سكنية تتكون من ثمانية طوابق كان يقطنها أفراد من القوات الإسرائيلية في مدينة صور، بجنوب لبنان.

كما أفاد صمدي بأنه ستكرر الدعوات للمزيد من المتطوعين في مقبرة فاطمة الزهراء، وهي أكبر مقبرة في طهران لشهداء الحرب العراقية - الإيرانية، وذلك في الأسبوع التالي، ووعد بإنشاء مدارس ابتدائية خاصة للتدريب على العمليات الانتحارية.

وقد أوفى بكلمته، إذ قامت قيادة المؤسسة في الثاني من كانون الأول/ديسمبر 2004، بجمع حشد غفير في الجزء الخاص بالشهداء في مقبرة فاطمة الزهراء، وذلك لتكريم أولئك الذين قاموا بعمليات انتحارية. وبناء على إفاذة وكالة الأنباء الإيرانية (مهرا)، فقد كشفت المنظمة عن نصب تذكاري لتكريم الشهداء الذين قتلوا في هجمات "حزب الله" سنة 1983 التي استهدفت مقر مشاة البحرية الأميركية، والثكنات العسكرية لجنود حفظ السلام الفرنسيين في بيروت. وقد تم وضع هذا النصب بجانب النصب التذكاري الخاص بقاتل (الرئيس المصري) أنور السادات. وقد اختتم صمدي الفعالية بخطاب حماسي، معلنا فيه "أن العملية التي نفذت ضد البحرية الأميركية كانت ضربة قاصمة للأميركيين، وبينت بأنه على الرغم من سمعتهم الجوفاء وقوتهم الخيالية... فإن [لديهم] نقاط ضعف كثيرة وهشة جدا. ونعتبر هذه العملية نموذجا جيدا. إن المقابر التي دفن فيها قتلهم تعطي منظرا جميلا يبهج القلب ويفرح خاطر، وتلجج صدور أولئك المسلمين الذين دلوا تحت أذىة البانكيز فيما لم يول المجتمع الدولي أدنى اهتمام لهم".

ولقد استمر فيلق الانتحاريين في التوسع بالرغم من أن هناك دلائل على أن رعاتهم لم يجعلوا منهم عناصر جاهزة للعمل بعد. ففي نيسان/أبريل عام 2005، أعلنت جريدة إيران Iran اليومية شبه الرسمية أنه تم تشكيل وحدة من الإناث الانتحاريات أطلق عليها اسم "بنات الزيتون". كما نشر الموقع الإلكتروني الإخباري (بازتاب) (Baztab)، الذي يرتبط بمحسن رضائي، الرئيس السابق لهيئة الحرس الثوري الإسلامي من سنة 1981 إلى 1997 والذي يشغل منذ ذلك الحين منصب سكرتير مجلس تشخيص مصلحة النظام الإيراني، نشر اقتباسا لأحد الأشخاص ويدعى فيروز رجائي- قار، ذكر فيه "أن النساء والفتيات الإيرانيات الباحثات عن الشهادة أصبحت جاهزات للضحي على درب أخواتهن الطاهرات من المقاتلات الفلسطينيات، اللاتي سببن أفزع الكوايسس والرعب في أوساط الصهاينة". وفيروز رجائي- قار هو محتجز رهائن سابق من السفارة الأميركية في طهران، ولديه ترخيص لإدارة مجلة دوكوه Do-Kouhe (أي الجبلين، نسبة إلى إحدى ساحات القتال الأعنف في الحرب العراقية - الإيرانية)، التابعة لمنظمة الحارس - أنصار حزب الله.

وقد قام آية الله حسين نوري حمداني بإضفاء شرعية لاهوتية على هذا النوع من العمليات الانتحارية في رسالة وجهها للجمع الغفير من مناصري هذه العمليات، مؤكداً أن حضور مثل هذا التجمع يدل على الموافقة الكلية على القيام بمثل هذه العمليات، وكذلك إنشاء شبكة مناصرة لها.

وقد حضر هذا الاجتماع ممثل حركة "حماس" الفلسطينية (في إيران) أبو أسامة المطاوع، ومحمد حسن رحيميان الممثل الشخصي للقائد الأعلى لمؤسسة الشهيد Bonyad-e Shahid وتعتبر أقوى مؤسسة من هذا النوع؛ ومهدي كشك زاده عضو البرلمان الإيراني؛ ومصطفى رحمان دست الأمين العام لجمعية نصرة الشعب الفلسطيني؛ ومهرزيه حديده ديباغ الممثل الأعلى للنساء المقاتلات.

ومع هذا، فإن أكثر التعبيرات الدالة على الصلابة والتضامن (في مجمل هذه الخطابات) ظلت محبودة. وقد قامت وكالة مهر للأبناء بنشر إعلان واحد فقط يتناول موضوع التضامن، يعود للمتحدث الرسمي بجامعة ياسينج في فرع طهران التابع لجامعة آزاد الإسلامية. وفي الخطاب، قام المتحدث بمقارنة الأعمال الانتحارية المعاصرة بالأعمال الثورية التي قام بها مرزا رضا كرمانى، قاتل نصر الدين شاه، الملك الإيراني في القرن التاسع عشر والذي تدمه الجمهورية الإسلامية، كما قارنها بأعمال نافع ساقافي مؤسس منظمة فدائبي الإسلام، والأخير مشهور باعتياله الكاتب والمؤرخ القومي الليبرالي، أحمد كسروي.

لكن الأمر المهم هو قيام مجموعة من جامعة آزاد الإسلامية بالصادقة على هذه المنظمة.

الجدير بالذكر أن جامعة زاد الإسلامية أنشئت بغرض توسيع الرقعة التعليمية بعد قيام الثورة الإسلامية. ولدى الجامعة العديد من الفروع في أنحاء البلاد، وتعتبر اليوم أكبر صرح للتعليم العالي في إيران.

وفي 13 أيار/مايو 2005، أعلن المسؤولون الإيرانيون عن تكوين الوحدة الثانية للعمليات الانتحارية الإرهابية تحت مسمى "وحدة طالب الشهادة"، والمكونة من ثلاثمائة باحث عن الشهادة، الجاهزين للعمل. وفي غضون بضعة أشهر، كان هناك

بعد مضي عدة سنوات على إعلان الرئيس الأميركي (السابق) جورج دبليو بوش الحرب العالمية على الإرهاب، ما زال النظام الإيراني يحتضن الإرهاب الانتحاري باعتباره مكونا مهما من مكونات مذهبه العسكري. وللترويج لأعمال التفجيرات الانتحارية وأعمال إرهابية أخرى، قام منظرو النظام باستغلال الدين بهدف استقطاب الانتحاريين وتجنيدهم وتسويغ أعمالهم. ولأن بعض التيارات داخل جمهورية إيران الإسلامية تدعم تطوير ما يسمونه بالألوية الاستشهادية، فإن تركيبتها ونشاطاتها توحي بأن الغاية منها أن تكون أداة إستراتيجية ليس فقط لضرب الغرب وردعه، ولكن أيضا كوسيلة لإخماد أي محاولات داخلية تهدف إلى زعزعة الإرث الثوري للجمهورية الإسلامية.

وتظهر مثل هذه الإستراتيجية جلية في عمل مركز التحليل المذهبي لأمن بلا حدود (Markaz-e barresiha-ye doktrinyal-e amniyat bedun marz)، وهو عبارة عن مؤسسة تفكير تابعة لهيئة الحرس الثوري الإسلامي الإيراني. وقد قام مدير المركز، حسن عباسي، باحتضان مؤسسة الإرهاب الانتحاري. ففي 16 شباط/فبراير 2006، ألقى عباسي خطابا رئيسيا خلال فعاليات الحلقة التي أقيمت في جامعة خاجة - ناصر لإحياء ذكرى فتوى آية الله الخميني بقتل الكاتب البريطاني سلمان رشدي. وكما كان الخميني يفعل عادة، بدأ عباسي محاضرتة باتباع أسلوب النقد الأدبي؛ من خلال تحليل إحدى المطبوعات الأميركية التي نشرت سنة 2004. فهذه المطبوعة، بحسب عباسي، "تصور رسول الإسلام كنبى جاء لإراقة الدم ونشر العنف". وبصيغة بلاغية، طرح عباس التساؤلات الآتية: "هل سيفهم الرجل الغربي معنى الشهادة ولديه هذه الفكرة المتحيزة؟ (وهل بإمكانه) أن يفسر الإسلام بأي شيء عدا أنه الإرهاب بعينه؟" إن الغرب ينظر إلى العمليات الانتحارية على أنها إرهاب. ولكنها بالنسبة لعباسي تعبير "نبيل عن الإسلام.

وبالتالي فما هو الإرهاب إذا لم يكن العمليات الانتحارية؛ بالنسبة لعباسي، يتضمن الإرهاب أي حديث أو عبارة يعتبرها مهينة للإسلام. وحسب التغطية الإعلامية لمحاضرتة، فقد لاحظ عباسي أن "المستشارة الألمانية" ميركل و(الرئيس الأميركي السابق) بوش الابن قاما بتقديم الدعم للجريدة الندمركية التي نشرت رسوما مسيئة للرسول (صلى الله عليه وسلم)، مما أدى إلى تشويه سمعتهما في العالم الإسلامي، كما أن هذا الدعم أثر تساوُلا حول ما إذا كانت المسيحية، على عكس الإسلام، ذات طبيعة إرهابية". ومن منظور القيادة الإيرانية، تعد الرسوم الكاريكاتورية التي نشرتُها جريدة (جيلاندز بوستن) Jylland-Posten>s الندمركية دليلا يثبت وجود الإرهاب المسيحي.

ووفق تعبير عباسي، فإن إيران لا يمكن أن ترعى الإرهاب، ولكنها لن تتورع عن مؤازرة وترويج الهجمات الانتحارية. وقد أعلن أن حوالي 40 ألفا من الإيرانيين الباحثين عن الشهادة مستعدون للقيام بعمليات انتحارية ضد "تسعة وعشرين هدفا من الأهداف الغربية التي تم تحديدها"، في حال توجيه الولايات المتحدة ضربة عسكرية للمنشآت النووية الإيرانية.

مثل هذه التهديدات ليست جديدة. ففي إحدى المقابلات التي أجرتها وكالة أنباء فارس مع عباسي، والمشورة في موقعه الإلكتروني، دعا إلى تبني ما يسمى "بالإرهاب المقدس" منذ سنة 2004. وكما كتب عباسي، فإن "جبهة الكفر هي جبهة أعداء الله والمسلمين. وأي عمل يسبب الرهبة والرعب في أوساط الكفرة يعتبر عملا مقدسا ومشرفا". وفي 5 حزيران/يونيو 2004، تحدث عباسي عن إمكانية تغلب العمليات الانتحارية على قوة عسكرية متفوقة، قائلا: "طالما وجد الاعتقاد القائم على التوكل على الله، فإنه ليس هناك حاجة لوجود تكافؤ عسكري لمواجهة العدو... فالرجل المتوكل على الله يجهز نفسه للشهادة بخلاف غيره من الأميين، الذين يكافحون من أجل قتل الآخرين".

وقد تزامن حضور عباسي، كما تزايدت أهميته، في أجهزة الإعلام الإيرانية الحكومية مع نمو العديد من المنظمات التي قامت بتجسيم أولئك الذين يميلون إلى الاعتدال داخل الجمهورية الإسلامية. خذ على سبيل المثال، مؤسسة إحياء شهداء الحركة الإسلامية العالمية (Bahar Bahar Shalanche-e Shohada-ye Nehzat-e Setad-e Eslami) وهي منظمة أسست في 2004 لمناهضة محاولات الرئيس محمد خاتمي تحسين علاقات إيران مع مصر.

وقد أخذ صيت المنظمة ينمو على مدار ذلك العام. ففي الخامس من حزيران/يونيو 2004، خصصت جريدة الشرق Shargh اليومية الإصلاحية الصفحة الأولى لمقابلة مع محمد علي الصمدي، المتحدث الرسمي باسم المنظمة. والصمدي وثيق الصلة بالثوريين المتشددين، والذين لهم تاريخ حافل. كما أنه عضو في هيئة تحرير مجلتي شلامشي Shalanche Bahar والتابعيتين لأنصار حزب الله المتشددين - مجموعة حارس، وكذلك جريدة الجمهورية الإسلامية Jomhuri-ye Eslami، التي تعتبر صوت وزارة الاستخبارات.

وقد ذكر صمدي أنه سجل 2000 متطوع للقيام بعمليات انتحارية خلال حلقة النقاش التي أقيمت قبل ذلك بيوم واحد. وتظهر نسخ استمارات التسجيل (أنظر الشكل رقم 1) أن "الباحثون عن الشهادة" يستطيعون التطوع للقيام بعمليات انتحارية ضد ثلاثة أهداف رئيسية، هي: القوات الأميركية في المدن الشيعية المقدسة بالعراق، والإسرائيليون في القدس، وضد سلمان رشدي. كما تظهر قوائم التسجيل اقتباسا من إعلان الخميني، الذي قال فيه: "إذا قام العدو بهجومه أراضي المسلمين وحدودهم، فقد وجب على كل المسلمين الدفاع عنها بكل الوسائل الممكنة [بما في ذلك] التضحية بالنفس والمال".

وكذلك ملاحظات القائد الأعلى الحالي، علي خامنئي، التي تفيد بأن "البحث عن الشهادة يمثل أعظم تأكيد على عظمة الأمة، وأرقى ملهمة يمكن تجسيدها في هذا الباب. فالرجل والشاب والولد والبنيت الجاهزون للتضحية بحياتهم من أجل أمتهم ودينهم، ويعتبرون [رمز] الفخر الأعظم، والإقدام، والشجاعة". وبحسب تقارير صحفية، فقد حضر حلقات النقاش التي تقيّمها المؤسسة عدد من كبار مسؤولي النظام الإيراني.

الوحدات الانتحارية

يبدو أن المسؤولين الإيرانيين صادقون في كلامهم. ففي أيلول/سبتمبر 2004، وخلال إلقاء خطاب في بوشهر حيث يوجد المفاعل النووي الإيراني الأبرز، أعلن صمدي عن تكوين وحدة للباحثين عن الشهادة من بوشهر. في حين أن السيد حسين شريعتمداري، مدير تحرير جريدة كيهان Keyhan الرسمية اليومية قال "بأن أفراد الجيش الأميركي سيكونون رهاننا في العراق"، وتفاخر بأن العمليات الاستشهادية تمثل القدرات التكتيكية للعالم الإسلامي.

وبعد ذلك، وبالتحديد في تشرين الثاني/نوفمبر 2004، وردا على الحملة العسكرية التي قامت بها القوات الأميركية ضد المتمردين في الفلوجة، أعلن صمدي عن تكوين أول وحدة انتحارية. وقد أطلق على هذه الوحدة اسم أكبر صانعي القنابل في حركة "حماس" [الفلسطينية]، يحيى عياش، المعروف أيضا باسم "المهندس"

حشد كبير للباحثين عن الشهادة في جامعة شهرود. وبينما لم يحضر ممثل "حماس" الذي دعي رسميا لهذا الاجتماع، فقد شاهد الحاضرون، وبالبالحي، الرئيس محمود أحمدني نجاد وهو يلقي كلمته خلال فعاليات مؤتمر "عالم من دون صهيونية". وعلى الرغم من أن وضع لوائي العمليات الانتحارية الثالث والرابع يظل غير واضح، فإن هناك وحدات انتحارية جديدة لم تزل تعلن عن استعدادها للقيام بهذه العمليات. ففي أيار/مايو 2006، أعلنت الوحدة الخامسة للباحثين عن الشهادة استعدادها للدفاع عن إيران، وهي وحدة أطلق عليها اسم القائد نادر مهدي الذي قتل سنة 1988 في مهمة انتحارية ضد القوات البحرية الأميركية في الخليج الفارسي. وقد ادعت قيادة المؤسسة أنها جندت "خمسة وثلاثين يهوديا أجنبيا" للقيام بهجمات انتحارية.

إن قيام "حزب الله" اللبناني باختطاف جنديين إسرائيليين في 12 تموز/يوليو 2006 قد أعطى الألوية الانتحارية الإيرانية فرصة أخرى للحصول على شهرة إعلامية وتغطية صحفية أوسع. ففي 17 تموز/يوليو 2006، أعلنت وكالة أريا الإخبارية، في تقرير لها، عن إرسال بعثة تتكون من وحدتين للباحثين عن الشهادة إلى لبنان، تضمنت أولاهما ثمانية عشر شخصا، في حين تكونت الثانية من تسعة أشخاص. وبعد عشرة أيام من هذا التصريح، وأثناء المظاهرات العارمة التي شهدتها كل من طهران وتبريز، أعلن متطوعون عن استعدادهم لخوض حرب مقدسة.

كما كان هناك حشد كبير في راشت عاصمة مقاطعة جيلان في بحر قزوين، في 29 تموز/يوليو. وعلى الرغم من الشجاعة [التي أبدأها هؤلاء]، فقد قامت الشرطة الإيرانية بإيقاف قافلة من الذين يسمفون أنفسهم بـ "الباحثين عن الشهادة" في الحدود التركية. وقد ذكر أحد المواقع الإلكترونية اليسارية نقلا عن حاكم مقاطعة أذربيجان الغربية حيث يقع الحد الفاصل مع تركيا، تكذيبه [المزاعم التي أفادت] تلقيه اتصالا هاتفيا من أحمدني نجاد يطلب منه منع هذه الوحدات الانتحارية من العبور.

التدريب والقيادة

في حين تسعى الحكومة الإيرانية للحصول على قيمة دعائية من خلال إعلاناتها عن الوحدات الانتحارية الجديدة، فلا تزال هناك شكوك حول مدى صداقية تجنيد هؤلاء الانتحاريين. عندما قامت مجلة الشباب الإيراني بعمل مقابلة مع السيدة رجائي- قار، التي نظمت وحدة "بنات الزيتون" [الانتحارية]، ظلت تراوغ حول مدى جدية المجنذات في الوحدة والتزامهن بالانتحار.

وعلى الرغم من خطاباتها البلاغية والتجمع الاستعراضي، فإن هناك القليل من الشواهد على أن الحكومة الإيرانية قد أقامت مخيمات لتدريب الإرهابيين الانتحاريين. وبينما قام الحرس الثوري بتشغيل شبكة من القواعد داخل إيران، فإن التغطية لا تزال ضعيفة، على الأقل من قبل الصحف ووسائل الإعلام الإيرانية ذات المصادر المفتوحة، حول أنشطة التدريب الفعلية للذين تم تجنيدهم من قبل قيادة المؤسسة. وثمة إشاراتان اثنتان تفيدان بحصول تدريبات عسكرية قامت بها الألوية الانتحارية حول سد كارج، وقد أشار محمد رضا جعفري، قائد مخيم تدريب «اتحاد عشاق الشهداء» Gharar-gah-e Ashaghan-e Shahadat إلى أحد هذه التمارين، بالقول "لييك يا خامنئي".

وباستثناء تمثيل حركة "حماس" خلال مرحلة التطوير المبكر لوحدات "الباحثين عن الشهادة" الإيرانية، هناك إنباتات قليلة على وجود ارتباطات منتظمة مع منظمات إرهابية خارجية. إن تدريب أي وحدة [انتحارية] لا يدل بالضرورة على أن الحكومة الإيرانية مستعدة لنشر تلك القوات [بهدف تنفيذ أعمال إرهابية]. ففي حزيران/يونيو 2004، أوضح صمدي أن "أنشطة قيادة المؤسسة ستبقى ذات طابع نظري طالما أنه لا يوجد أي تفويض رسمي بذلك، كما أن عمليات الباحثين عن الشهادة لن تبدأ إلا إذا صدرت الأوامر بذلك من القائد [علي خامنئي]".

ومع هذا، لم تزل الجهات التي تصدر الأوامر والتي لديها السيطرة على هذه العناصر مهمة وغير معروفة. فقد شدد حسين الله كرم، وهو أحد الأشخاص المشهورين من عناصر أنصار حزب الله وإن كان لا يتمتع بعلاقات رسمية مع "الباحثين عن الشهادة"، على أن صدور إذن من خامنئي ليس ضروريا للقيام بأي تدريبات يحمل نقدا المتدربون غير مسلحين. وفي محاولة للتلمص من سؤال حول الحاجة أو الضرورة لإنشاء وحدات للباحثين عن الشهادة توازي وتضاهي الباسيج، رد كرم قائلا: "إن مجموعات الباحثين عن الشهادة هي عبارة عن منظمات غير حكومية"، وليست جزءا من التكوينات الرسمية الإيرانية.

والباسيج هي ميليشيات شيعية شبه عسكرية من مخبرين غير نظاميين، أسندت إليها مهمة حماية الثورة وعلى نحو مطلق، ولم تشعر هذه الميليشيات بالسعادة حيال هذا التنافس. وقد أدان قائد الباسيج، محمد حجازي، إعلان قيادة المؤسسة نيتها إرسال وحدات انتحارية إلى لبنان، إذ صرح قائلا إن "هذه الأعمال لا تمت بأي صلة للجهاز الرسمي [الإيراني]، ولكنها تخدم أهدافا دعائية لا غير". وبأسلوب يحمل نقدا غير مباشر لقيادة الوحدات الانتحارية، أضاف قائلا: "هناك بعض المجموعات التي تبدو وكأنها مستقلة تحاول جذب... الشباب ودون التنسيق مع المؤسسات الرسمية أو موافقة الجهات الأمرة، وذلك لأغراض دعائية. قد تكون غاياتها نبيلة ولكن أساليبها غير صحيحة". وقد عزز غلام حسين إلهام الناطق الرسمي باسم الحكومة الإيرانية، هذه الحاجة.

كما تم تأكيد المكانة غير الحكومية لقيادة المؤسسة ووحدات "الباحثين عن الشهادة" في بعض الملاحظات والتصريحات التي أدلى بها أحد قادة الحرس الثوري المجهولين، وذلك لصحيفة (الشرق) Shargh، حيث أفاد قائلا: "بما أن قيادة المؤسسة ليست حكومية، فإن المنظمة لا تنتظر الأوامر من الجيش في حالة قيامها بأي إجراء. فعملياتها لا بد أن تقارن بالعمليات الاستشهادية للفلسطينيين، والذين ليس لهم أي علاقة مع حكومة إيران".

أما وزارة الخارجية، التي كانت في عهد الرئيس محمد خاتمي إصلاحية أكثر من الحرس الثوري ذي الطابع المتزمت والمتحجر، فقد صورت عناصر قيادة المؤسسة بأنهم "عناصر غير مسئولة"، وأنهم "لا يعكسون توجه الحكومة".

وفي 3 آب/أغسطس 2006، وأثناء فعاليات الحشد الجماهيري في مقبرة فاطمة الزهراء (المخصصة لقتلى الحرب الإيرانية - العراقية)، قال أحد أعضاء البرلمان الإيراني، السيد مهدي كشك زاده إن قيادة المؤسسة عبارة عن منظمة غير حكومية.

وقد رد موقع (بازتاب) Baztab الإلكتروني الإخباري بغضب على نشر إعلانات تخص "العمليات الاستشهادية" في مجلة (بارتوف) Partov، وهي مجلة شهرية متشددة يصدرها معهد الإمام الخميني للأبحاث Imam Khomeini Research Institute في مدينة قم، حيث اتهم الموقع قيادة المؤسسة ومدير المعهد، آية الله